المخطوطات الأعجمية الموريسكية

الأستاذ الحسين بوزينب

أستاذ بكلية الآداب ــ الرباط

إن المخطوطات الأعجمية الموريسكية مخطوطات كتبت بإسبانية آخر مسلمي جزيرة الأندلس التي كانت تمتاز بخواص تجعلها تختلف عن لغة باقي سكان هذه البلاد : كالحفاظ على خاصيات لغوية تخلت عنها لغة المسيحيين عدة قرون من قبل، ثم إن هذه المخطوطات، التي تنتمي في أغلبها إلى القرن السادس عشر الميلادي وبداية السابع عشر، معظمها يوجد مكتوبا بحروف عربية وتستعمل مصطلحات إسلامية وبنيات لغوية عربية للتعبير عن المفاهيم الثقافية التي كانت تميز المسلم الإسباني عن المسيحي الإسباني، أما المواضيع التي تطرقت إليها فإنها تختلف باختلاف حاجة الموريسكي المضطهد من قبل محاكم التفتيش، فالمواضيع الدينية من قرآن وحديث وفقه... الخ، تكون أهم جزء من هذه الكتابات، ولنا كذلك حكايات بطولية إسلامية وحتى مسيحية أحيانا وتنبؤات وشعر... الخ.

ولكن هذا الأدب الموريسكي المكتشف إلى حد الآن يستجيب إلى حاجة الموريسكي إلى الحفاظ والدفاع عن هويته الإسلامية ومميزاته الحضارية.

ويرجع الاكتشاف الحقيقي لهذه المخطوطات والاستفادة منها إلى قرننا هذا وإن لم أقل إلى النصف الثاني منه. فبالرغم من ظهورها صدفة منذ نهاية القرن الثامن عشر لم يع الدارسون مضمونها منذ البداية، فوجودها مكتوبة بخط عربي كان يجعل مكتشفيها يظنون أنها كتب عربية، فقراءة العبارات التي كتبها مالكو هذه المخطوطات و مصنفوها قد تبين لنا كيف كان التعامل مع هذه الكتابات.

فبخصوص المخطوط 5302 للمكتبة الوطنية بمدريد نقرأ هذه العبارات المضافة :

1) «في بلدة Belchite، وفي أواخر شهر شتنبر من عام 1716 وجدت هذه الكتابات العبرية في منزل Mathias Lucas في المكان المسمى بحي السيد».

ثم أضيفت بعد ذلك العبارة اللاتينية الآتية :

2) «كتابة رديئة ولا تفهم، ليست بعبرية بل عربية مغربية أو موريتانية»، وفي الأخير يضيف المترجم القاصري Miguel Casiri.

3) «ليست بعربية موريتانية بل هي لغة قشتالية».

ويعتبر أهم اكتشاف للمخطوطات الأعجمية الموريسكية هو ذلك الذي حدث ببلدة Al Monacid de la Sierra بناحية سرقسطة سنة 1884 على إثر هدم أحد المنازل القديمة، وتوجد هذه المخطوطات حاليا في معهد الدراسات العربية التابع للمجلس الأعلى للبحث العلمي بمدريد.

ومن المكتبات الإسبانية التي تضم مخطوطات أعجمية زيادة على السالفة الذكر، نخص بالذكر المكتبة الوطنية بمدريد، ومكتبة القصر الملكي ومكتبة الإسكوريال والمكتبة البلدية بطليطلة، وخارج إسبانيا المكتبة الوطنية بباريس ومكتبة كامبريدج... الخ، وبلادنا قد تتوفر على مخطوطات لم تكتشف بعد، فمخطوط الموطأ للإمام مالك الذي يحمل شروحا بالعجمية الموريسكية الموجودة في حوزة الأستاذ محمد المنوني ينم عن هذه الإمكانية.

لقد قلنا سابقا إن البحث في هذا الميدان قد بدأ حديثا لأن ما قام به المستشرقون الإسبان أمثال Guillen Robles و Paswal Gayangos في القرن الماضي من نشر لبعض الحكايات الموريسكية، أو النصوص الدينية لم يكن يتوخى تحقيق النصوص بطرق علمية بقدر ما كان يهدف إلى تسهيل قراءتها.

إن هذه المخطوطات التي تعبر أيما تعبير عن الشخصية الموريسكية لازدواجيتها من شتى الجوانب تستوجب تعاملا خاصا يأخذ بعين الاعتبار جملة من العناصر التي اجتمعت لتتمخض عن هذا النتاج.

فمن جهة، نجد أن هذه الكتابات تستعمل رموزا موحدة لمقابلة الأصوات الإسبانية وكأننا بالموريسكيين وقد اجتمعوا في مؤتمر لغوي وضعوا فيه قواعد لنسخ اللغة الإسبانية بحروف عربية، فمن لا يتعجب من التوحيد الرمزي الذي توصل إليه هؤلاء الموريسكيون لنقل الأصوات الإسبانية : E و I و P و N و CH...

الخ، وهي أصوات لا مقابل لها بالعربية، وربما قد لا يتحسس البعض ما أريد أن أبين هنا، ولكنهم لو تذكروا ما يعانيه معاصرونا عندما يحاولون نسخ إسم إسباني أو فرنسي تمثلا بالحروف العربية فلربما أدركوا ذلك. فكيف يمكن لنا اليوم أن نميز بين الصائتين E و I في اسمين مثل Viguera أو Higuera، إذا أردنا أن ننسخها بالعربية، وآخذ هذين المثالين الحيين، وأستسمح الأختين، لأن لي فيهما شاهدا وهي هذه الوثيقة (برنامج هذه الندوة) فـ Viguera نسخ بالعربية فيجيرا وHiguera هيجيرا أي أن الناسخ وجد صعوبة للتمييز بين الصائتين الإسبانيين E و I فألغى التمييز الذي بينهما، ولكن الموريسكي كان أدق فكان يخصص الكسر لـ I والفتح + الألف لـ E كما نفعل في العربية عند كتابة الكلمة : ماءة.

فالتوحيد الرمزي يطرح عدة تساؤلات، منها كيف يستطيع هذا الأدب المحظور والممنوع أن يتوصل إلى توحيد جهاز من أجهزة عمله أي نظام النسخ Sistema de transcripcion فهذا يجعلنا نفكر أن لظاهرة الأدب الأعجمي جذورا تصل إلى الحقب الأندلسية السابقة، فاستعمال الحروف العربية لكتابة اللغة الإسبانية كان متداولا قبل الموريسكيين وخصوصا بين العامة من الناس، خصوصا في التراسل وهذه الظاهرة تشبه ما حدث ويحدث في المغرب بين البربر المستعملين الحروف العربية لكتابة لغتهم.

وأما هذا التوحيد الرمزي نجد أحيانا بعض المخطوطات تحاول إعطاء دقة أكبر فتضيف بعض الرموز التي لا تستعملها الغالبية كالتمييز بين الدال والذال في الإسبانية (علما أن هذه اللغة لا تتوفر إلا على رمز واحد لهذين الصوتين هو D ولكن له تحقيقين مرة كدال وأخرى كذال). وإضافة التشديد أحيانا على حروف شديدة Oclusivas ربما لإبراز هذه الشدة، أو إضافة المد في كلمات إسبانية للتعبير على النبر الاسباني... الخ.

ومن جهة أخرى نجد الخطوط التي تبرز هذه الكتابات تتعدد وتختلف، فمن الخطوط الأنيقة والجميلة التي تراعي أدنى الجزئيات، نمر عبر خطوط يمكن أن نعتبرها متوسطة إلى أن نصل إلى خطوط تبين وكأن كاتبيها أشخاص مبتدئون لا يتحكمون في القلم، وهذا الصنف الأخير يوجد بكثرة ويظهر أن أصحابه حديثوا العهد بتعلم الكتابة العربية، الكتابة فقط، بل والحروف فقط، لأن قواعد الكتابة العربية لا تراعى بتاتا، فقد يكتبون حروف الوسط في الأخير أو يقسمون

الكلمة بين السطرين كما هو الشأن في الإسبانية، أو يلصقون جزءا من الكلمة بالتي تليها، زيادة على كتابة ما يسمع وترك ما لا يسمع، ككتابة الصلاة بالألف والصاد واللام أصل وحرام بدون ألف المد... الخ.

أما فيما يخص قيمة هذه الكتابات التي لا تقبل التقييم العمودي، فيجب النظر إليها من زاوية كونها تعكس حياة مجموعة إنسانية تشبثت بقيمها الروحية والثقافية، حيث كانت تواجه باستمرار خطر الإبادة، فلا يجب إذا أن ننتظر أدبا رفيعا كالذي كان لدى معاصريهم من المسيحيين الذين كانوا يحيون عصرهم الذهبي، بل إن الأدب الموريسكي أدب مقاومة استئصال الهوية ومقاومة التذويب، وأدب استطاع رغم كل ما كان يحيط به من مخاطر أن يؤدي رسالة وهي البقاء في محيط الإسلام.

زيادة على هذا فإن هذه الكتابات يمكن الاستفادة منها في مجالين خاصين، أولهما دراسة نتائج التقاء لغتين كالعربية والإسبانية في الترجمة، لأن كثيرا من هذه المخطوطات عبارة عن ترجمات لنصوص عربية، فهي بهذا تقدم لنا مجالا خصبا لدراسة مختلف التقاطعات والانتحالات اللغوية التي تحدث عند التقاء لغتين.

والمجال الثاني هو مجال الدراسات اللغوية الرومنسية من صوتيات ومعجميات، فوجود الإسبانية مكتوبة بخط عربي يوفر للباحث في هذا الميدان إمكانية إضافية لمعرفة حالات يصعب إدراكها من خلال النصوص المكتوبة بالخط اللاتيني وحده.

إن البحث في هذا الميدان اقتصر إلى حد الآن على المختصين في الدراسات اللغوية الرومنسية والملمين بعض الشيء باللغة العربية، ولذلك أتت الأبحاث متعمقة في الجانب الرومنسي، ومقصرة في الجانب العربي.

فحتى يكون البحث متكاملا أظن أن من الضروري الإلمام باللغتين العربية والإسبانية إلماما كافيا يفهم شتى المعاني والأشكال اللغوية، ويستحسن أن يكون للباحث معرفة باللهجة المغربية الدارجة لأن اللهجة العربية الأندلسية العامية وجدت في المغرب امتدادا لها.

القيمة الوثائقية للمخطوطات الاسبانية من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر المتعلقة بالحضارة الأندلسية

الدكتورة تريزا بيريز هيجيرا

أستاذة بجامعة مدريد

أبرزت الأستاذة من خلال مجموعة من الشفافيات قيمة المخطوطات الإسبانية المتعلقة بالحضارة الأندلسية وذلك خلال الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر. فناقشت ضمن عرضها مسألة انتقال بعض الفنون من المشرق إلى إسبانيا المسيحية، وبينت تأثر الفنون المسيحية سواء في الأندلس أو في إسبانيا عموما، خلال القرن العاشر، بالفنون العباسية والساسانية كما يتجلى ذلك في اللباس والعمارة وحياة الأمراء وغيرها.